الفصل الثاني: الجانب العملي العمراني

في حياة النبي (ﷺ)

كلامه ونومه (صلى الله عليه وسلم)

جانب الخلافة أو جانب العمل العمراني كان من أبرز الجوانب في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) لأن العبادة مثلًا: منها ما يظهر أمام الناس في كل الأوقات مثل الفروض، ومنها ما لا يظهر إلا في بعض الأوقات مثل النوافل، ولكن العمل العمراني هو ذلك المسلك الظاهر دائمًا أمام الناس.

وكان النبي (ﷺ) الأسبق في هذا المجال؛ إلا أن ظروف العرب التاريخية والجغرافية (قلة النشاط الإنساني بسبب ظروف الصحراء) منعت كتاب السير والمؤرخين العرب، ومن نقل عنهم من الاحتفاء والاحتفال بهذا الجانب العظيم من حياة النبي (ﷺ).

وفي العصر الحديث وجد أعداء الإسلام والكسالى من أبنائه في ذلك فرصةً سانحةً للدعوة إلى الخمول وترك العمل العمراني، واستعانوا ببعض النصوص التي ساعدهم قلب معناها على تركيز وتحبيذ هذا الاتجاه عند الأمة.

والنبي (ﷺ) كان إذا أراد أن يحدث أصحابه جلس بينهم في وقت محدد من كل أسبوع في غالب أمره، وكان يجلس أحيانًا متكئًا من فرط ما ناله من الجهد في العمل العمراني.

ورواة الأحاديث الشريفة نقلوا إلينا هيئة هذه الجلسة في رواياتهم؛ فظنت الأجيال اللاحقة أن كثرة الجلوس والاتكاء سنة عن النبي (ﷺ) بالإضافة إلى كثرة الكلام وإطالة الحديث، والنبي (ﷺ) من كل ذلك براء.

وأصبح العلماء يصنعون لأنفسهم أو تُصْنع لهم الأرائك للاتكاء عليها وقت إلقاء المواعظ، وفي كثير من المساجد توجد الأرائك المعدة للعلماء. وفي كثير من الدول العربية تُنْشَأ أماكن للجلوس والحديث فقط، وتُوضَع الفرش فيها فوق الأرض تحفها فوق الأرض تحفها وسائد كبيرة وغليظة للاتكاء.

والباحث في سنة النبي (ﷺ) يجد أنه (ﷺ) لم يكن كثير الكلام ولا كثير الكلام ولا كثير النوم.

فبالنسبة للكلام – وهو بضاعة الواعظ والعلماء – : كان (ﷺ) يعبر عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وذُكِر أن من خصائصه النفسية أنه (أُوتِي جوامع الكلم)، وقد دفعني هذا الحديث الشريف إلى جمع الأحاديث الصحيحة في كل من البخاري ومسلم.

فكانت في البخاري (٤٠٠٠) أربعة آلاف حديث،[١] وكانت في مسلم (٤٠٠٠) أربعة آلاف حديث،[٢] ومن الممكن أن نصل بهذا العدد إلى (٨٠٠٠) ثمانية آلاف حديث لما عساه أن يكون قد صح في الكتب الأخرى غير البخاري ومسلم، ثم قسمت هذا العدد على الأيام التي قضاها النبي (ﷺ) في الدعوة إلى كالآتي:

٢٣ سنةً × ١٢ شهرًا × ٣٠ يومًا = ٨٢٨٠ يومًا.

٨٠٠٠ ÷ ٨٢٨٠ = واحد حديث في اليم الواحد تقريبًا.[٣]

ومن هنا يتضح أن النبي (ﷺ) حدث أصحابه بما يعادل حديثًا واحدًا كل يوم، وإذا رجعنا لقاعدة (أوتِيت جوامع الكلم) وجدنا أن متوسط إلقاء الحديث يعادل دقيقةً واحدةً في اليوم، فتكون نسبة التوجيه النظري إلى نسبة العمل العمراني في حياة النبي (ﷺ) هي ١: ١٤٤٠، ومن هنا ندرك إدراكًا علميًّا كيف أسس الرسول (ﷺ) الدولة ونظم الأمة، وكشف الغمة عن البشرية جمعاء.

وكيف كان يدرب الفتيان في أطراف المدينة، وينظم الجيوش للوصول إلى أطراف العالم.

والعالم الإسلامي لا يحتاج إلى تقليد اليابانيون والألمان فقط؛ بل يحتاج العالم الإسلامي إلى التأسي بالنبي (ﷺ) تأسيًّا حقيقيًّا من خلال سنته المنطبقة على عطائه الحضاري، لا من خلال سنته كما يراها الكسالى وأصحاب الفهم السقيم، أو الفهم اللئيم من أعدائنا الذين يزينون لنا في كل محفل فهمنا العقيم لسنة النبي (ﷺ).

١- مقدمة ابن الصلاح، ص١٠، ١١، ط مكتبة المتنبي بالقاهرة.

٢- تدريب الراوي، جزء٢ ص١٠٤، طبعة دار الكتب الحديثة، ط٢.

٣- وقد يقول قائل بأن عدد الأحاديث الصحيحة ضعف هذا العدد فتكون النتيجة حديثين كل يوم أو أربعة أضعاف العدد فتكون النتيجة ٤ أربعة أحاديث في كل يوم، ومهما ضاعفنا هذا العدد فلن نشغل ساعةً كاملةً من اليوم.

والنقلة الحضارية الضخمة التي أحدثها (ﷺ) في جزيرة العرب، وفي العالم أجمع من خلال أصحابه تشهد بذلك.

وبالنسبة لنومه (ﷺ): فقد توافرت النصوص في القرآن الكريم والسنة الشريفة التي تؤكد قلته، وأحيانًا ندرته، ففي القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ (المزمل:١-٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء:٧٩).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ (ق:٤٠).

وفي السنة الشريفة تواترت الروايات التي تثبت قيامه الليل وقلة نومه. وكأنه كان يجود العبادة ليلًا، والعمل العمراني نهارًا.

وكان يشتد في عبادة الليل حتى كانت تقول له السيدة عائشة: أفتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فكان يرد عليها: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»، وهكذا تكثر روايات السنة الشريفة التي تثبت خفة حركة النبي (ﷺ) وقلة نومه.

العمل العمراني في حياة النبي (ﷺ)

الموقف الأول: رعي الغنم

ذهب النبي (ﷺ) مع حليمة إلى بني سعد لكي تقوم بإرضاعه بدلًا من أمه، وفى نهاية إقامته (ﷺ) في بني سعد اشتغل برعي الغنم لحليمة وأسرتها مع إخوانه مع أبنائها وكأن النبي (ﷺ) كان على موعد مع العمل العمراني منذ طفولته.

ففي هذه السن المبكرة ينزع الغلمان إلى اللهو واللعب، ولكن رسول الله (ﷺ) تاقت نفسه إلى العمل وبذل الجهد وتطوير الحياة منذ طفولته المبكرة، ثم قام برعي الغنم بعد ذلك في شبابه، وقد نبهنا (ﷺ) إلى أن العمل العمراني من شيم الأنبياء والمرسلين جميعًا، فيروي ابن اسحاق قوله: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قِيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا».

وفي البخاري: «كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

وهي بداية طيبة في العمل والعرق وبذل الجهد تحت لهيب شمس جزيرة العرب.

الموقف الثاني: التجارة في الشام

وبعد رعي الغنم وما يتركه من أثر عظيم في بناء الشخصية الإنسانية تأتي التجارة وهي نشاط إنساني يكسب النفس خبرةً كبيرةً بأحوال النفوس والبلاد؛ فهي نشاط نفسي اقتصادي، وهي عمل جاد تحكمه آليات السوق، ومساحة لا مكان فيها لخامل كسول، فالتجارة تقوم على حساب المال والوقت ودراسة المكان، والنشاط.

الخروج

عقد أبو طالب العزم وجهز نفسه وأحضر الزاد والراحلة، وبعد أن اطمأن على أحوال ابن أخيه محمد (ﷺ) وعلى مقامه في مكة أثناء غيابه في الشام ولم يكن يتخيل أن ابن أخيه لديه رغبة في الحركة والفاعلية والتفاعل مع العالم الذي يحيط به، ولذلك أصابه الذهول عندما أخبره الفتى[1] الصغير محمد (ﷺ) أنه يعتزم الذهاب معه إلى الشام من أجل التجارة، وأنه لا يستطيع أن يعيش في خمول وكسل، أو لهو ولعب مثل باقي فتيان مكة.

ويظهر تشبث النبي (ﷺ) بهذه الرحلة من عبارة ابن إسحاق (ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرًا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير، صب إليه رسول الله (ﷺ)، فرق له وقال: والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا.[2]

والصبابة دقة الشوق، والتعبير بـ (صب إليه) يشعر القارئ بالعزم القوية عند رسول الله (ﷺ) للذهاب إلى الشام من أجل العمل والتجارة.

إن الأطفال في هذه السن الصغيرة يرقون إلى اللهو واللعب، ولكن صاحب الفطرة السليمة يرق إلى الجد والعمل والعطاء، ويشعر أن كل لحظة في الحياة لا بد أن تُؤَدى لصالح الخلافة وتطوير الحياة، حتى النوم عند أصحاب الفطرة السليمة يكون من أجل إراحة الجسد، لاستئناف العمل ولا يكون خمولًا وكسلًا وقتلًا للوقت كما تفعل المجتمعات المتخلفة الآن.

إن الإنسان الصالح يؤدى عمله العمراني على اعتبار أنه واجب خلافة وحياة، ولكن رسول

١- تقدر الروايات عمر النبي (ﷺ) في هذه الرحلة بتسع سنين أو باثنتي عشرة سنة، والنفس تميل إلى التقدير الأجير.

٢- ابن هشام ١/ ١٦٥، ط مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٩٠م.

الله (ﷺ) – وهو ما يزال طفلًا – يؤدي عمله العمراني بشوق وحب وإقبال تعجز العقول عن فهم أسبابه وأهدافه على السواء.

ولو تلقفت الذهنية العربية فحوى هذا التعبير (صب إليه) – من أجل الخروج للعمل – مبكرًا، وقام العلماء بمحاولة فهم هذا التعبير وتحليله لكان لهذه الأمة شأن آخر، ولكن من يقرأ أخبار هذه الرحلة في المراجع العربية القديمة يجد تركيزًا على قصة الراهب بحيرى؛ على عادة العرب الاحتفاء بالخبر وترك مدلوله.

ولم يفطن أحد إلى تعبير ابن إسحاق (صب إليه)، ومهمة العمران التي كان يقوم بها رسول الله (ﷺ) وقصة الراهب بحيرى لا اعتراض عليها، ولكنها ليست الرحلة ولا هدفًا من أهدافها، إنما هي حادثة عارضة اكتنفت الرحلة، والبحث العلمي يجب أن يقف عند الباعث على الرحلة، والهدف المرحلي والنهائي لها.

الموقف الثالث: التجارة مع خديجة

يتميز رجال الأعمال وسيدات الأعمال أيضًا بصفات أساسية تؤهلهم للقيام بأعمالهم في عالم التجارة والمال، ومن هذه الصفات: الدقة والانضباط، وتحمل بذل الجهد لفترات طويلة دون كلل أو ملل، ومتابعة الأعمال متابعةً تامةً، والحرص الشديد على الوقت لأنه يتحول في عالم التجارة إلى قيم مالية ملموسة، والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد، ودراسة حركة السلع والمنتجات داخل القطر وخارجه، والوعي العام باحتياجات السوق، والفهم العميق لآليات السوق (القواعد التي تحكم الحركة داخل السوق) والاستفادة من كل شيء، وتحويله إلى ربح ينضم لرأس المال.

والسيدة خديجة – رضوان الله تعالى عليها – كانت من سيدات الأعمال (بالتعبير المعاصر) في مكة، وابن هشام يقول عنها: «كانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرةً، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم».

هذا وصف دقيق لسيدات أعمال من الطراز الجيد، فهي امرأة تاجرة لم يتكون لديها المال بطريق الميراث، ولكنها جمعته بجهد وتخطيط وتدبير، وهي ذات شرف ومال، أي أصبح لديها المال المتراكم من حصيلة الربح من التجارة؛ تستأجر الرجال في مالها لأن المال تضخم لديها، وأصبحت في حاجة إلى أنشطة جديدة وبعيدة عن مكة.

ولأن كل تجمع سكاني له قدرة محددة في استهلاك منتجات معينة، لذلك يلجأ التجار إلى نقل أنشطتهم إلى أماكن مختلفة، وهو ما يُعَبر عنه في الوقت الحاضر (بالاستيراد والتصدير)، وخديجة كانت تستأجر الرجال في مالها، وتجعل لهم شيئًا من الربح (نظام العمولة) يُعْطَى لهم بعد كل رحلة أو صفقة، وأصبحت خديجة مع الأيام من أغنى سيدات مكة على الإطلاق.

ويبقى سؤال حائر يلح على الذهن: لماذا لم تتزوج السيدة خديجة من أي رجل من الذين كانت تستأجرهم للعمل عندها؟

إن من عادة رجال وسيدات الأعمال تقييم من يعمل معهم بحسب جهده المبذول، وتوفيقه في هذا الجهد، وفي عالم التجارة والمال لا مكان للكسول، المتواكل، أو الغبي، ولا شك أن السيدة خديجة كانت تختار من يعملون معها بدقة بالغة، ولكنها لم تجد فيهم من يحقق أملها في تحقيق أعلى درجات الربح ومع مهارة عالية في الإدارة، وأمانة في الأداء، ولذلك كان النبي (ﷺ) هو المثل الذي تطمح إليه السيدة خديجة من حيث بذل الجهد الكثير المبارك، والقيادة والتخطيط للعمل والأمانة، ووجدت أن مالها تضاعف.

نعم؛ روى لها ميسرة كثيرًا من الصفات الكريمة، ولكن سيدة الأعمال يشدها التفوق في مجالها – التجارة – وتصبح الصفات الكريمة عوامل مساعدة بعد ذلك.

ماذا لو قال لها ميسرة إنه (ﷺ) كان كسولًا لا يحب العمل وبذل الجهد؟ أكانت تنفعها بعد ذلك كثرة الصفات الطيبة؟

إن العامل الحاسم في هذه القصة كان هو نجاح النبي (ﷺ) في تجارة خديجة، وابن هشام لم يغفل هذا في عرضه للأحداث: «فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به، فأضعف أو قريبًا ...».[1]

هذا النص يحتاج إلى دراسة متأنية من الناحية الاقتصادية، فمنذ كانت التجارة بين البشر كان الربح جزءًا – قل أو كثر – من رأس المال ولكن القيادة الحكيمة، والإدارة الرشيدة التي قام بها النبي (ﷺ) جعلت الربح قدر المال أو قريبًا من ذلك.

وفي مواجهة هذا النجاح في أداء العمل – تنمية المال – تقف امرأة تملك حاسة وذكاء

١- ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ١٧١، ط مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٩٠.

التاجر ومهارة رجال الأعمال، ولكنها تقف مشدوهةً متعجبةً مما ترى وتسمع، فقد أدركت أن في مكة من هو أقدر على إدارة المال، وإنشاء الأعمال منها، ولذلك لم تجد حرجًا في إعلانها له أنها ترغب فيه، وقد رغبت عن الكثيرين قبله.

وعاطفة السيدة – خديجة – رضوان الله تعالى عليها – تجاه النبي (ﷺ) كانت نتيجةً لنجاحه في إدارة تجارتها – مع ما يتحلى به من كرم في الخلق وأمانة في الأداء – ولم تكن سببًا لإدارة هذه التجارة، فهي سيدة قائدة حازمة تملك عاطفةً عاقلةً، ولا تسيرها العواطف وحدها.

ويصور هذا ابن هشام بقوله: «وكانت خديجة امرأةً حازمةً، شريفةً، لبيبةً، مع ما أراد الله – تعالى – بها من كرامته، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله (ﷺ)، فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك،[1] وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالًا، كل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليه».[2]

ذكرت خديجة – رضي الله عنها – كثيرًا من الصفات الطيبة لرسول الله (ﷺ) ومن هذه الصفات صفة الأمانة، وبعض العلماء يقف بالأمانة، عند حد المحافظة على الشيء المؤتمن عليه، وهي بذلك صفة تتجه إلى السلب، غير أن صفة الأمانة التي كانت تقصدها خديجة – رضوان الله تعالى عليها – وهي تحدث بها رسول الله (ﷺ) كانت الأمانة الفاعلة التي تشمل المحافظة على الوقت لأنه جزء من رأس المال المستخدم في التجارة، واختيار كافة الظروف المناسبة للعرض والطلب ودراسة آليات السوق، وتفعيل كل درهم لصالح التجارة والعائد منها.

فعند الشخصيات الكبيرة تكون المعاني كبيرةً وجامعةً، ولعل الله – سبحانه وتعالى – قد اختار للنبي (ﷺ) السيدة خديجة لمزيد من الخير للرسالة الخاتمة.

١- السلطة: من الوسط كالعدة والزنة، والوسط من أوصاف المدح والتفضيل إذ جاء في ذكر في ذكر النسب والشهادة (نثل من الروض الأنف ١/ ٢١٢ تحقيق عبد الرؤوف سعد).

٢- سيرة ابن هشام ١/ ١٧٢.

فسيدة الأعمال سيدة لها عقل كبير، وحكمة مستمدة من دوران حركة التجارة بين الربح والخسارة، وحرص شديد على الوقت وإحساس بخطورته، ثم بعد ذلك تمييز للربح الحقيقي الدائم والربح المخادع الزائف.

ومن هنا تزوجت السيدة خديجة النبي (ﷺ)، وبقيت معه حتى انتهت معظم الظروف الصعبة التي كانت تكتنف الرسالة في بدايتها، فالسيدة خديجة لم تكن سيدةً عاديةً يتزوجها الرجل للتمتع بها وإنجاب الأطفال منها فحسب، فهذا النوع من السيدات ليس مؤهلًا لتحمل أعباء الرسالة، ومعاناة واقع، إنهن يعشن على هامش الحياة، يُولدن ويرحلن من غير أن يؤثرن فيها بشيء، ويعتقدن أن المهمة الأولى لهن الفراش وإنجاب الأطفال.

إن سيدة الأعمال طراز خاص للنساء – لاسيما خديجة – لقد فُطِرت على حب العمل والكدح، والقيادة والريادة، ولذلك تُوصَف السيدة خديجة بهذه الصفات: حازمة، شريفة، لبيبة وهذا ما يفسر لنا سر تحملها مع النبي (ﷺ) أعباء الرسالة العظيمة، وكيف صبرت على الأهوال التي تعرضت لها، وكيف كانت تثبت في مواقف كثيرة لا يستطيع الثبات فيها الكثرة المتضاعفة من الناس.

فهي لم تتصف بالثبات فحسب، بل كانت تثبت الرسول (ﷺ) حين يتعرض للأحداث الجسام، وكانت دائمًا ترفع شعارًا ترده قولًا: والله؛ إن الله لن يخزيك أبدًا! وليس هذا غريبًا على سيدة احترفت العمل والتجارة وتنمية المال.

ولو كان المسلمون في هذا العصر يحترمون العمل العمراني ويولون وجوههم شطره بعد البيت الحرام، لخرج من بين صفوف هذه الأمة سيدات كثيرات فضليات يسرن على منهج خديجة – رضوان الله تعالى عليها – وكن قد أُعطين مساندةً جيدةً للرسالة الخاتمة – كما فعلت خديجة – رضوان الله تعالى عليها – لأن قيم العمل والكفاح تُضَاف إلى بناء النفس الإنسانية أو تسلب منها اتجاه الشعوب.

الموقف الرابع: سلمان الفارسي والرق

سلمان الفارسي رجل من أهل أصبهان[1] من قرية يُقَال لها جي؛ كان أبوه سيد قريته، وكان سلمان أحب الناس إليه لدرجة أنه حبسه في المنزل كما تُحبَس الفتاة، وظل يعلمه

١- أصبهان: بمعنى الفرس أو العسكر فهي بمعنى أرض الخيل أو العسكر، فهي جملة واحدة أرض العسكر.

المجوسية حتى أصبح قطن النار – أي راعيها – الذي لا يتركها تخبو ساعةً واحدةً في اليوم والليلة.

وفي يوم شُغِل والده ببناء فأرسله إلى مزرعته – ضيعته – وأمره ألا يتخلف في العودة، وفي طريقه إلى المزرعة مر بكنيسة من كنائس النصارى، فسمع لأول مرة في حياته صلاتهم فأُعجِب بها، ومال إليها ووجد أنها أفضل لديه من عبادة النار، وسألهم عن أصل هذا الدين فقالوا له أن أصل هذا الدين يوجد بالشام.

فرجع إلى أبيه وأخبره بما رأى، وأخبره بميله إلى دين النصارى، فخاف عليه وجعل في رجليه قيدًا وحبسه في بيته، ولكن سلمان بدأ يرسل بعض خدمه إلى النصارى وعلم منهم بقدوم تجار من الشام، فلما قدم الشام سأل عن أكثر الناس حفظًا لهذا الدين، فأشاروا عليه بالذهاب إلى الأسقف في الكنيسة.

وذهب، ولكنه كان رجل سوء يجمع الصدقات، ولا يوزعها على الفقراء، فكرهه سلمان كرهًا شديدًا ودل عليه أهل البلدة، فأخرجوا الكنز وصلبوا الأسقف ورجموه، وجاءوا بغيره، فكان رجلًا صالحًا للغاية وزاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة.

وظل سلمان يخدم هذا الرجل، ويتعلم منه حتى وافته المنية، فطلب سلمان أن يرشده إلى من يعلمه، فأرسله إلى أسقف بالموصل، فذهب إليه وخدمه حتى جاء أجله، وقبل أن يموت دله على أسقف بنصيبين.

فذهب إليه وأقام عنده حتى أوشك الأسقف على الموت فسأله ما سأل سابقيه، أن يدله على رجل قائم على هذا الدين فأرسله إلى أسقف بعمورية في أرض الروم، وتاجر سلمان حتى أصبح غنيًّا.

فلما حضر الموت أسقف عمورية قال له سلمان: أنت تعلم أني جئتك من عند أصحابك؛ فأرسلني إلى رجل يعلم أمر هذا الدين مثلكم، فقال له الأسقف لم يعد أحد يعلم من أمر هذا الدين ما كنا نعلم، وقد جاء زمان نبي يخرج من أرض العرب يدعو إلى دين إبراهيم ويهاجر إلى أرض بين حرتين بهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بهذه البلاد، فافعل.

وبقي سلمان بعمورية بعد موت صاحبه مدةً يتاجر فيها ويتكسب حتى رأى جماعةً من

التجار العرب، فطلب منهم أن يرحل معهم إلى أرض العرب، ويعطيهم ما عنده من بقرات وغنم، فأخذوا ماشيته وحملوه معهم، ولكنهم غدروا به في الطريق وباعوه لرجل يهودي فباعه لابن عمه من بني قريظة، فحمله إلى المدينة.

وبقي بها حتى هاجر إليها المصطفى (ﷺ)؛ فأخذ سلمان – رضي الله تعالى عنه – شيئًا من طعام كان قد جمعه، وذهب به إلى رسول الله (ﷺ) وقال له هذا شيء من صدقة، فأمر رسول الله (ﷺ) أصحابه أن يأكلوا، ولكنه لم يأكل، ففهم سلمان أن هذه علامة.

وذهب إليه مرةً أخرى بطعام، قال: إنه هدية، فأكل منه النبي (ﷺ) ففهم سلمان أن هذه علامة أخرى، ومرةً ثالثة ينظر إلى ما بين كتفي النبي (ﷺ) فيرى خاتم النبوة، ثم جلس إلى النبي (ﷺ) وأعلن إسلامه، ولكنه لم يشارك في غزوة أحد، بسبب الرق وملك اليهودي له. [1]

تحرير سلمان من الرق

خاض الإسلام معارك كثيرة وسلمان الفارسي بعيدًا عن مساندة الإسلام في تلك المعارك بسبب الرق، وكان ذلك يحزنه كثيرًا ويسبب له ألمًا له لا حدود له.

وفي يوم من الأيام جاء سلمان الفارسي إلى النبي (ﷺ) وشكا لله ما يعانيه من قلق وحزن بسبب رقه وبعده عن مناصرة الإسلام، وهو يخوض أوليات معاركه الفاصلة بين الحق والباطل.

فقال له النبي (ﷺ): كاتب يا سلمان، فكاتب سلمان صاحبه اليهودي على أن يزرع له ثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية، وذهب إلى النبي (ﷺ) يخبره بشروط اليهوديٍ في العتق وهي شروط صعبة، بل مستحيلة من الناحية العملية، فكيف لعبد لا يملك شيئًا، أن يقوم بزراعة ثلاثمائة نخلة، وتسليم أربعين أوقية لمالكه.

فقال النبي (ﷺ) لصحابه أعينوا أخاكم، فأعانوه بالنخل كل بحسب مقدرته، فكان الرجل يحضر عشرين فسيلةً (وديةً) وكان الرجل يحضر ثلاثين، وبعضهم كان يحضر عشر أو خمس فسائل، حتى تم له جمع ثلاثمائة فسيلة.

غير أن هذا لا يحل مشكلة سلمان لأنه لا بد من زراعة هذه الفسائل ورعايتها وهي تحتاج

١- نُقِل بتصرف من سيرة ابن هشام ١/ ١٩٨-٢٠٤.

إلى عامين، أو ثلاثة أعوام، وأمره النبي (ﷺ) أن يحفر حفرة لكل فسيلة فإذا ما انتهى من الحفر عاد إليه.

وذهب معه النبي (ﷺ) وبعض الصحابة، وكانوا يقربون كل فسيلة من حفرتها ويقوم النبي بزراعتها حتى انتهى من الثلاثمائة فسيلة، ويؤكد الإمام أحمد[1] في روايته لهذه الحديث أن النبي (ﷺ) زرع الثلاثمائة إلا واحدةً زرعها سلمان وهي الوحيدة التي ماتت من الفسائل.

والبخاري وغيره يرون أن هذه من بركات النبي (ﷺ) وهذا أمر طبيعي لا شك فيه بالنسبة للنبي (ﷺ) ولكن لأن السيرة النبوية كُتِبت بطريقة خاصة فإن أحدًا لم يلتفت إلى معمل الخبرة بالزراعة بجانب معمل البركة.

فلا شك أن النبي (ﷺ) قضى أربعين سنةً قبل البعثة، قضاها في كد وكدح وعمل متواصل في مجالات كثيرة، بدأت برعي الغنم وانتهت بالتجارة مرورًا بالزراعة، لأن وضع الفسيلة في الأرض يحتاج بالفعل لخبير، لأنها لو ارتفعت عن وضعها المطلوب سنتيمترًا واحدًا ماتت مهما كان العلاج، ولو انخفضت كذلك سنتيمترًا واحدًا كان الموت هو النهاية لها.

فلو كانت المسألة مسألة بركة فقط لباركها النبي (ﷺ) وهو في بيته، ولكنها الخبرة العملية التي لا تجد – عبر التاريخ الإسلامي – اهتمامًا من بعض كتاب السيرة.

وقام سلمان برعاية الفسائل فترةً ليست بالقصيرة حتى تسلمها اليهودي نخلًا يانعًا، وعاد للنبي (ﷺ) يسأله المساعدة في المال، فأعطاه مثل بيض الدجاج من ذهب، وقال له: خذ هذه فأدها مما عليك، فقال سلمان: وأين هي مما علي؟

قال رسول الله (ﷺ) خذها فإن الله تعالى سيؤدي عنك. قال سلمان فوزنت لهم منها أربعين أوقيةً فأوفيتهم حقهم منها،[2] وبهذا أُعتِق سلمان الفارسي وشهد مع رسول الله (ﷺ) الخندق حرًّا، ولم يفته معه مشهد بعد ذلك.

***

١- أخرجه أحمد ٥/ ٤٤٠.

٢- في تكثير بركة واضحة ومتكررة في المال والطعام لرسول الله (ﷺ) ولكن في زراعة النخيل اجتمعت البركة مع الخبرة فكان النماء، ليتنا نستوعب هذه الدروس الكبيرة.

التعليق

إذا أردنا أن نصور أعظم ما بذلته البشرية في بحثها عن الحقيقة، فلم نجد أبلغ من قصة سلمان الفارسي، فقد قضى شطرًا كبيرًا من عمره يبحث عن الحقيقة، وضحى في سبيل ذلك بزهرة شبابه، وأفضل سنوات عمره.

يقول الأستاذ خالد محمد خالد عن سلمان الفارسي: «أي تبتل للحقيقة.. وأي ولاء لها، هذا الذي أخرج طائعًا مختارًا من ضياع أبيه، وثرائه ونعمائه إلى المجهول بكل أعبائه ومشاقه؛ ينتقل من أرض إلى أرض، ومن بلد إلى بلد ناصبًا، كادحًا عابدًا، يتفحص ببصيرته الناقدة الناس، والمذاهب والحياة، يظل في إصراره العظيم وراء الحق، وتضحياته النبيلة من أجل الهدي، حتى يُبَاع رقيقًا، ثم يثيبه الله – تعالى – ثوابه الأوفى، فيجمعه بالحق ويلاقيه برسوله (ﷺ) ثم يعطيه من طول العمر، ما يشهد معه بكلتي عينيه، رايات الحق تخفق في كل مكان من الأرض . . . ».[1]

والحديث عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي – رضي الله تعالى عنه– ذو شجون؛ فالكلام عن العظماء لا تتحمله الكتب مساحةً ووصفًا، ومع هذا لا بد من الوقوف مع هذا الصحابي عند جانب العمل العمراني لقصته العظيمة في عدة مواقف:

الموقف الأول:

من المُسَلم به أن سلمان الفارسي – رضي الله تعالى عنه – ظُلِم في رقه لأنه خرج من بلدته باحثًا عن الحقيقة، ولم يكن رقيقًا بالمعنى المعروف في البداية، ومع هذا ظل رقيقًا حتى بعد إسلامه.

الموقف الثاني:

إن النبي (ﷺ) لم يستخدم نفوذه لتحرير سلمان من الرق، بل ترك الأمور تسير سيرًا طبيعيًّا، حتى يحافظ على حق اليهودي قبل سلمان الفارسي.

١– خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص٥٦، دار ثابت، ١٩٩٠.

الموقف الثالث:

وهو يخالف ما عليه الذهنية المعاصرة، فكل المشاكل التي يتعرض لها الناس يُرْجَى حلها بطرق خالية، ولا يحاولون حلها بأسلوب عملي كما فعل رسول الله (ﷺ) مع سلمان الفارسي – رضي الله تعالى عنه – حين قال له كاتب يا سلمان.

وفي العصر الحديث أناس ليس لهم مثل ما لسلمان الفارسي، ولا معشار ما عنده من كرامة وبركة ومع هذا يُنْسَب إليهم أنهم قاموا بحل مشاكلهم، ومشاكل غيرهم بطرق تشبه معجزات الأنبياء؛ إن لم تتفوق عليها في كثير من الأحيان.

وهؤلاء الأشخاص المنسوب إليهم هذه الكرامات لم يعرفوا هذه الأشياء عن أنفسهم حال حياتهم، ولم يقولوا بذلك ولكن الذهنية العربية تهوى أن تنسب إليهم هذه الأشياء وهم منها براء، فهي ذهنية نشأت وترعرعت على فكر ألف ليلة وليلة، وهو أبعد في محتواه العام عن الخيال نفسه.

فسلمان العظيم بعد هذه الرحلة يُؤْمَر بمكاتبة صاحبه اليهودي – أي يدفع له ثمن نفسه ويحررها من الرق – ولأن سلمان الفارسي من أصحاب الهمم العالية حتى في رقه، فقد كان مخلصًا في عمله مما جعل اليهودي يتمسك به، ويُتَرجم ذلك التمسك إلى المغالاة في المكاتبة حتى استحال تنفيذ رغباته لو لا تدخل النبي (ﷺ) والصحابة بالمساعدة.

الموقف الرابع:

إن نقل وزراعة ثلاثمائة نخلة ليس بالأمر الهين، ولكنه هو الطريق العملي الوحيد لحل مشكلة سلمان الفارسي، ولو عرض على النبي (ﷺ) طريقًا غير ذلك ما وافق عليه، إذ رأى أنه يضر بمصالح اليهودي، أو يعطل طاقة سلمان في العمل العمراني.

الموقف الخامس:

إن زراعة النخيل في أرض اليهودي من الأعمال التي لا تستريح لها النفس ذات النظرة القاصرة، لأنها ترى أن هذا خير يُصْنَع لعدو، ولكن من يمعن النظر يرى أن في هذا العمل

تنمية لثروات المدينة بصفة عامة، فإنتاج هذا النخل سيُبَاع في أسواق المدينة، وسيعمل على خفض السعر بالنسبة للمستهلكين من المسلمين، وهذا ما قصد إليه الحبيب (ﷺ) حين شارك في هذا العمل الكبير، وقد سبق بذلك العمل أساتذةَ الاقتصاد في العصر الحديث.

وفي النهاية فإن قصة سلمان الفارسي ما يشد من أزر المسلمين ويقوي عزيمتهم، ويدفعهم إلى العمل الجاد والمنتج، ويجعلهم ينظرون إلى مشاكلهم وإلى البدائل الفاعلة في حل هذه المشاكل نظرةً عمليةً تغوص في أرض الواقع ولا تحلق في سماء الخيال.